

زمن للحرب

سمير عبدالفتاح

الزمن في أحد الأيام.. لا يهم إن كان ذلك اليوم خميساً أو أربعاءً.. الساعة تشير إلى ما قبل الواحدة صباحاً بثلاث دقائق، والنوم يفرض سيطرته عليك بعد يوم طويل قضيته -كما هي عادتك - متنقلاً بين المنزل والعمل و قضاء فترة قصيرة مع أحد الأصدقاء في المقهى.

دوي قذيفة تبعه أصوات المدافع.. لا تتسرع بتخمين الأمر أو الوصول للنهاية فمازلنا في البداية.

لنعد إلى نقطة أبعد في مسانك العادي.. نمت عند العاشرة وخمسة وأربعين دقيقة مساءً.. نمت والسكون يغلف كل الأشياء حولك بالأمان.. بضع أحلام - لابس بها - داهمتك في فترة نومك الأولى.. استيقظت قبل الساعة الثانية عشر ليلاً بقليل لتشرب كوباً من الماء، ثم عدت للنوم من جديد.. تبدد كل ذلك الآن عند الواحدة صباحاً.. لا تتذكر متى بدأت تسمع أصوات المدافع، قفزت من فوق سريرك بفعل الأصوات العالية، حتى إنك لم تفكر بأي شيء عندما خرجت إلى الشارع بملابس النوم وأنت تتطلع إلى السماء المظلمة لا تعرف إلى أين تتجه ببصرك، تتأمل النجوم الوهمية التي تلمع للحظة ومن ثم تسقط لتخترق التراب - الوهمي أيضاً - وتتلاشى.. لاشيء في ذاكرتك سوى الفزع.. فراغ هائل يحتويك وأنت ترى وميض شظايا القذائف الذي يلمع على البعد، ذاك الوميض الذي أربك أعماقك وجعل ضربات قلبك تعلو أكثر وأكثر، وتنفسك يعلو ويهبط بسرعة.

لحظات وعقلك مازال يشكك في أنك ترى الحقيقة، وأن كل هذا مجرد كابوس، وأنك تأثرت بالتقارير الإخبارية التي سمعتها من المذيع قبل النوم .

بعد هدوء ضجة المدافع قليلاً أحسست ببرودة الأرض تحت قدميك.. وانتبهت إلى قدميك الحافيتين وملابس النوم التي ترتديها، ثم أتى ذلك الصوت الأمر بالعودة للمنزل، وبسرعة عدت للداخل، تفاجأت بالسلم كأنك تراه للمرة الأولى، وتساءلت أن كان موجوداً حينما خرجت للشارع.

ارتديت ملابس الخروج على عجل برغم الظلام بدون أن تعرف إلى أين ستذهب، ووقفت ساكناً لتلمح في ذاكرتك - التي عاد جزء منها - أنك كنت ترى جيرانك حولك في الشارع يحاولون مثلك الهروب.. فلم يتوقف رنين الحياة داخلك فقط.. فقد

نسى معظم الناس الوقت، وتحولت أيديهم إلى أقدام تزحف بعيداً عن - أو من - الخوف.

حاولت التفكير في ما يحدث دون جدوى، حتى الأفكار هربت من الخوف، فقط أصوات المدافع تفرض واقعاً أكبر من أن يجاريه عقلك الخائف.. مازلت أسيراً للصدمة.. هذا مؤكد من حركاتك غير المفهومة.. لابس إنها المرة الأولى التي تواجه فيها مثل هذا الموقف.. وربما بعد أيام ستعتاد على هذا الأمر، لكن الآن الخوف.. خوف فقط.

حاولت تدخين سيجارة في الظلام، فلم تقو يدك على حملها، ألقيت بالسيجارة على الأرض وأنت تقسم بأنك لن تعود إليها مرة أخرى إن نجوت، أصوات المدافع تعود من جديد، فتلقي بنفسك تحت السرير.. بعد لحظات تستنكر اختفاءك تحت السرير، تخرج ببطء و جسمك يرغب بالبقاء.

تهرب إلى الزمن، تتعلق بعقارب الوقت، تقف أمام الساعة الحائطية.. تحرق في عقاربها بدون تركيز كأنك تنتظر شيئاً سيخرج منها، أو تفتح ثغرة فيها فتدخل عبرها إلى مكان آمن. الثواني البطيئة تعيد للساعة وظيفتها الأصلية.. فتقرأ الوقت، الساعة لم تتجاوز الثانية صباحاً، والليل بقي له الكثير.

تقلب بصرك في أرجاء غرفتك لتختار المكان المناسب لقضاء ليلة مفزعة.. وتلعن حظك الذي جعلك تسكن في الطابق الثاني، وتبدأ مسلسل الغضب لتسلي نفسك وتبعدها عن جو التوتر فقد تحول الليل إلى نهار وحتما سيتحول النهار إلى ليل، ويجب إبقاء حواسك منتبهة لأي حركة.

تنتقل بين الأثاث رغم الظلام بسهولة، وتفرغ قليلاً من التوتر في الأثاث، لكن الحركة تشعرك بالموت فتقف صامتاً، و تعود الأصوات لتزِيل مجهودك في تمالك أعصابك.. تميز الآن أن الأصوات - أصوات القذائف - بعيدة بما يكفي لتشعر بالأمان لعدة لحظات، فساحة المعركة بعيدة قليلاً.. ولكن ما يدريك لعل المعركة تنتقل إليك.. فقط قذيفة تخطئ وتسقط بين يديك لينتهي كل شيء.

الساعة الآن الثانية صباحاً.. وآلاف الثواني تنتظر دورها لإفزاعك.. تترك السرير لتحاول النوم خلف الباب تمهيداً لأي طارئ، فكل لحظة قد تعني النجاة وقد تعني..

ترجع ظهرك للباب، ويثير فيك فيه ملمسه البارد مشاعر مختلفة، سرعان ما تتركها، لتنهض وتتأكد من تلك الحركة الصغيرة التي صدر عنها صوت خافت بجوار الدولاب:

" إنها الفئران."

هكذا انزاح جانب من شفتيك لتلقي بالعبارة بشيء من الإعجاب والدهشة.. لم تستنكر علامات الانتشاء في وجهك لسماعك صوتاً ينبض بالحياة، بل اقتربت من مصدر الحركة.. لكن الفئران عادت إلى جحورها فزعة من حركتك، شعرت بشيء من القوة يجتاح خلاياك فمازالت لديك القدرة لإخافة حياة شيء ما.. لم تلبث بهذا الشعور سوى لحظات، ومن ثم أعادك هروبها إلى التفكير بالهروب، تسلل إليك شيء من الحزن على الفئران.. فأنتم تمررون بنفس الوقت داخل عالم الخوف، اتجهت إلى الثلجة الصغيرة وأخرجت منها قطعة من الجبن ووضعتها حيث تعتقد أن الفئران كانت تمرح فيها قبل قليل، وأطلقت قسماً بأنك ستطعمها كل يوم، لتضيف قسماً جديداً للقائمة التي تنتظر انتهاء الحرب لتبدأ بتنفيذها .

تتسلل إلى النافذة لعلك تدرك ما يحدث، فتواجه أنت والسكون، ولم يخرجكما من المواجهة سوى أعيرة نارية مزقت السكون، وتنتظر أن تمزقك أنت أيضاً.. تتراجع للخلف وأنت تفكر فيما سيحدث الآن.. لكن الهدوء القاتل بعد ذلك بعشر توقعاتك، وجعلك تتساءل إن كان صوت الأعيرة النارية حقيقياً أم أنك توهمت الأمر؟ وتوالت الأسئلة، ولم تجد سوى ضباب يغلف كل شيء كإجابة لكل الأسئلة، تقول مشجعاً نفسك بأن الخوف أعاد كل مظاهر الحياة للوراء.

ثوان تمر، ودقائق تتبعتها ببطء، كأن الوقت أصبح له قانون آخر.. ثقيل.. قاتل.. والأمان الهش مازال يتسرب من بين يديك.. يختفي للحظة ليعود أقل مع اللحظات الأخرى، حاولت النوم دون جدوى، فالفرع طارد النوم وجعل منه عدواً يجب الخلاص منه.

قبل الفجر بدقائق لم يعد دوي القنابل يثير القلق كما كان في البداية، أصبح تفكيرك أكثر هدوءاً، وها أنت تعد العدة لاستقبال الشظية القاتلة بعد صوت انفجار هادر.

ترى منزلك يطير وأنت تحاول جذبه نحو القاع.. لكن صوتاً ما يجتاز الشارع يعيد منزلك إلى أساسه، ويؤكد لك أنك مازلت على قيد الحياة، وأن اللحظات السابقة كانت كابوس.. وتتمنى صوتاً آخر يبشرك أن الحرب التي تعيش دوامتها هي كابوس آخر، لا تستطيع إكمال يقظتك أو أحلامك، فمجرد قليل من التركيز يهوي بك في الأعماق.. أعماق الخوف.

تتوالى سريعاً الخواطر المفزعة، تُقنع نفسك بالوصول إلى مرحلة يتوحد فيها النوم مع اليقظة.. وبثوان بطيئة أكملت الدقائق المتبقية لموعد الفجر.

قفل النافذة في متناول يدك لتتأكد من كل شيء.. يدك تمتد إلى مزلاج النافذة، تتمنى حدوث شيء يوقف محاولتك.. لكن مزلاج النافذة يدور بين يديك من خلف الستارة.. حركة أخرى وتنتفح النافذة، لكن آخر قطرة من الشجاعة اختفت مع حركتك السابقة.. تحس بجفاف حلقك، فتعود للداخل مسرعاً لتبحث عن كوب من الماء دون أن تضطر للاعتراف بخوفك.. تملأ الكوب للمرة الثالثة فمازلت تشعر أن حلقك جاف وأيضاً لتشغل نفسك بأي شيء.

ها هو الضوء يتسرب من بين خيوط الستارة لينبئ باقتراب الصباح.. يشجعك ذلك على العودة مرة أخرى للنافذة.. وببطء تزيح جانباً من الستارة لتتأكد من أن الضوء هو نفسه الذي اعتدت على رؤيته قبل طلوع الشمس، يخترق شعوراً بالنجاة خوفك فتزيح الستارة بأكملها، وتكمل فتح النافذة لتستنشق الهواء البارد كأنك كنت تعيش كابوساً وحان موعد خروجك منه:

"ما زال الجميع نياماً."

هكذا تقول لنفسك وأنت ترى أشعة الشمس الأولى تضرب الطرقات دون أن تجد أحداً يمشي فوقها.. علبة صغيرة من الصفيح تتدحرج، كل حواسك تنتقل إليها فتستقر العلبة بسكون كأنها تعتذر لأنها أزعجتك، تطمئن نفسك بأن هذا ليس خوفاً ولكنه الحذر، فعدم الاهتمام سيلقي بك في دائرة الموت، لذلك يجب الاهتمام والانتباه لكل شيء فلا أحد يضمن شيئاً، كل حركة أو إشارة يجب أن تفسر من جديد لتضمن استمرارك فوق التراب.

نصف ساعة أخرى تمر دون أن يتجرأ أحد على المساس بحرمة الصمت، حتى أنت تخجل من مجرد التفكير بالخروج فما من شيء يدفع الآن لارتكاب هذه حماقة.

يطلق المنبه صريره معلناً عن الساعة صباحاً - ميعاد استيقاظك لتتوجه إلى عملك - لكن الرنين كان له أثراً مزعجاً، فأسرعت إلى الساعة لتوقف المنبه حتى لا يدرك أحد بأن في هذا المنزل حياة، تنتظر قليلاً وأنت تصغي للأصوات، يشجعك الصمت على إكمال ارتداء ملابسك للخروج إلى العمل، وأنت تردد ألف سبب لعدم الذهاب.. تقول لنفسك أن الأعمال متوقفة، و لن يذهب أحد لمقر عمله.. لكن خطوط المواجهة البعيدة عن المدينة تجبرك على التفكير جيداً بالذهاب فما زال الوقت مبكراً للاستسلام.

نصف ساعة تمر وأنت مازلت ترجح عدم الذهاب، تنتظر أصوات القذائف لتعينك على القرار الذي اتخذته.. بضع دقائق تضاف إلى عمرك والصمت ما زال يسيطر

على الوضع مما يحفزك على الاقتراب من الباب.. تتسمع بحذر، وتفتح الباب وتعيد إغلاقه من الداخل بسرعة كأنك تتوقع أن يرتمي عليه شيء ما.

يزعجك خوفك فتصرخ في نفسك لماذا الخوف ؟ تفتح الباب من جديد وتغلقه بحرص من الخارج، تنزل على السلم محاولاً إثارة أكبر كمية من الضجة.. تبتسم عندما تتخيل جيرانك المفزوعين من هذه الضجة:

" لم يعد هناك مجال للتردد"

تحدث نفسك متبعاً للكلمات بخطوات واسعة لتجتاز باب المنزل.. يدك ترتفع للأعلى لتحجب أشعة الشمس عن رأسك.. تتألفت يميناً وشمالاً عليك تجد صورة من صور الحياة. حاولت السير بعيداً عن المنزل، لكنك توقفت بعد بضع خطوات، وبينما أعدت قدميك للخلف تساءلت إلى أين تذهب ؟

تفتنع بضرورة التآني وعدم التسرع، وهكذا تجلس على عتبة باب البيت مستمتعاً بأنك كنت الأول في قهر خوفك أو الأول في التعبير عنه - لا فرق -.

تكسر حدة الصمت بأسئلة عن الأماكن التي تعرفها لتختار إحداها ليكون هدفاً تمشي إليه.

بضع دقائق تمر وأنت وحيد مع الشمس.. منذ فترة طويلة لم تراقب خيوط الشمس الصباحية، لكن المنظر الآن لا يثيرك.. حتى أنك لا تهتم بالدفء المتولد عن سقوط الشمس عليك.

ترى أول خيوط الحياة، رجل يحمل حقيبة صغيرة في يد وطفلاً في اليد الأخرى، تخمن أنهما يبحثان عن النجاة، بعد أربع دقائق تحس أن الآخرين قد استوعبوا الأمر، فهاهم يمرون تباعاً أمامك، بعضهم يحمل بعض ثيابه، والبعض الآخر اكتفى أن ينجو بنفسه.

منتصف الظهيرة الآن.. لا.. ليس في الأمر ما يربك، إنها الظهيرة فعلاً، ولم يتحول الوقت من صباح إلى ظهيرة بمرور دقائق.. بل كان الفرق بينهما كما هو منذ الأزل، لكنك شعرت بالظهيرة مبكراً عن كل يوم، ورغم الأصوات والحكايات المفزعة طوال الصباح لم يكن خوفك كبيراً بالدرجة التي تستحق التسطير، بل كان خوفاً عادياً يلازمك دائماً ولا يحتاج إلى مساعدة في إخراجه على ملامحك.

إذاً منتصف الظهيرة الآن، وقبل عشر ساعات لم تكن لتجرؤ على التفكير بأنك ستقف في الميدان منتظراً إحدى الحافلات، ولولا مجموعة من البشر تتواجد أمامك

لهرولت بعيداً عن مكان انتظار الحافلات، فأبي انتظر معناه أن الموت في الطريق إليك، فالموت لا يحتاج منك سوى الوقوف بالطابور كي يجهز عليك.

ثلاثة أرباع الساعة مرت ولم تظهر الحافلة بعد، احتملت ربع ساعة أخرى، لكنك في النهاية تركت محطة الحافلات، وعدت إلى منزلك سيراً على الأقدام، وغيرت رأيك - بالذهاب للمنزل - في منتصف الطريق لتأكل في أحد المطاعم لتعود بسرعة للعمل في الفترة الثانية.

الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر.. تتجه إلى منزلك بعد مغادرتك مقر العمل للفترة الثانية، كنت قد ذهبت إلى (يحي) صديقك لتطمئن عليه:

" كان نهاراً بدون إزعاج."

تزيدك نبرة صوتك ارتياحاً، فتصفر بصوت خافت وأنت تبحث عن شيء يسليك حتى تصل للمنزل، تضم شفطيك بامتعاض من أصحاب المحلات التجارية الذين لم يفتحوا محلاتهم برغم الهدوء، تدخل في نقاش مع نفسك - التي لا تجد أفضل منها لتتجادل، وتختلف، وتتفق في النهاية معها - حول خوف أصحاب المحلات، لكن سرعان ما يخرسكما الخوف بتحطم جدار الصمت إثر هدير الطائرات التي تبحث عن هدف لتلقي عليه حمولتها.. توقفت للحظة لتبحث في ذاكرتك عن أفضل مكان للاختباء فلم تجد سوى منزلك، فتسابق الريح إليه، ترى المنزل على بعد عشرات من الأمتار فتتردد خطواتك كأنك على موعد مع الموت:

" ربما سيظير سقف المنزل الآن أو بعد ثانية"

الكلمات الهامسة تستقر في قدميك وتوقفهما لتحسب احتمالات النجاة، تنسى كل الاحتمالات عندما تزداد طلقات المدافع.. ولو كنت في ظروف أخرى لدهشت من كيفية وصولك إلى ما خلف باب منزلك بعد عدة ثوان.

دقات الساعة تعلن اقتراب الموت، وعقاربها تسابق الشمس نحو الغروب، تلمح بطرف عينك أفول الشمس، فتحاول اللحاق بضوئها، وتتجه إلى خارج الغرفة ولكنك - للأسف - لا تتجاوز عتبة الباب، فتنمى لو يصبح منزلك كله بوابة تخرج عبرها إلى النجاة.

بقايا الضوء تنعكس على حقيبتك المملوءة بالثياب وما يلزم للهروب من المدينة، تلك الحقيبة التي حملتها البارحة وحاولت القفز من النافذة لولا الظلام الذي ضاعف خوفك وجعلك تضعها بصمت جوار النافذة، وها أنت تقارن وزنها بدوي الطلقات،

فتمتد يدك إليها، وتنشد اليد الأخرى الخلاص بعيداً عنها، قدم مع الزحف للأمام، وأخرى مع الزحف لأسفل السرير.

أخيراً سيطر الظلام على كل شيء، وقضى على التفكير في الهروب.

القلق لم يدع لك مجالاً للاسترخاء أو عمل شيء دون الوقوع في الأخطاء.. فتفكر بملء الفراغ لتتخلص من الأوهام والكوابيس.. تتفقد منزلك شبراً شبراً، ثم تعد العرق الذي يملأ مخيلتك، وتتساءل إن كانت غرف البيت ثلاث كما هي الآن؟ تتفحص الجدران لعل فيها ثقب يمكن أن يتسرب الموت منه.. حتى اللوحة الصغيرة على الجدار - التي تحمل تاريخ عودة بقية أسرتك من المدينة التي سافروا إليها - مازالت ثابتة وتحمل نفس التاريخ بعد ثلاثة أسابيع.. فقط شيء غير مرئي تشعر أنه يملأ المنزل، وبرغم الجهد الذي بذلته لم تمر سوى ثوان وبجانبها أربع دقائق من زمن الليل الطويل، لا تكاد تجلس حتى تنهض لتتأكد من النافذة من أي شيء لم يتغير.. الأوهام تصبح حقائق لابد من العيش بينها، والذكريات تهرب بعيداً باحثة عن الدفاء.

الساعة السابعة مساءً. تتفقد خلاياك لعل إحداها هربت وتركتك وحيداً تصارع الخوف، تتمنى أن تجد العشرات - من خلاياك - بعيدة عنك تفرح في سعادة، لكنها كلها مازالت تتحصن بخوفك.

أفكار عدة تزامم المدة الزمنية الواقعة بين الثانية وما بعدها، وتحقق زمناً قياسياً في وقت بقائها أمام عينيك.

تختفي الجدران، ويمتد بصرك عميقاً للأمام مخترقاً إطار الجدران، تتحول إلى قائد عسكري على الجميع طاعته، تعطي الأوامر للفرق العسكرية وارتال الدبابات فوق ميادين القتال، وأنت تنتقل بينهم بحصانك الأبيض، ثم تنطلق إلى رابية عالية لتشاهد من عليها أرض المعركة.. تقود من هناك الطائرات وتشير لها بالأهداف، وصراخك يحول الخوف إلى رماد يتطاير بعيداً عن جنودك.. يختفي الحصان لتظهر وسط الجنود، وتأتيك أوامر بتدمير موقع، وأمرأ آخر بالنقدم فوق حقل ألغام، فتقتحم الدروب دون أن تدع في نفسك ذرة خوف أو فرح تؤثر على تقدمك.. فأنت الآن تخضع لقانون جديد، وتتجه لهدف واحد هو التقدم للأمام حتى تأتيك الأوامر بالتوقف.

تحرك بصرك في أرجاء الغرفة لتبتعد عن تلك الأفكار، فتغافلك الوسواس، وتعود من جديد ارتال الدبابات بالمرور من حولك، لحظات وتمر رايات النصر أمام

عينيك المرهقتين، وتطوف معها داخل الشوارع، تتمرغ بالزهور التي تسقط عليكما أنت والراية، لحظات فقط وتتحول علامات النصر إلى هزيمة .

تدخل دوامة الأفكار، أفكار تؤيد الحرب وأخرى تندد، تشك بأنك أصبحت محطة لانتظار الأشياء الهامشية وكذلك للتوافه.

خطوط تملأ الصورة، تتوهم أنها الحقيقة الخالية من أي زيف، خواطر متباينة تنتظر دورها لتعرض خدماتها بين يدي عقلك. فكرة واحدة تشتت الصمت الزائف، وتعيد بعض الخلايا التي ابتعدت عنك، تتطلع إلى كل الجهات، ولا تجد سوى الجدران تخبرها بأفكارك محاولاً كسبها لصفك وتقول لها:

" أليس من الأفضل أن يتركوا منزلي بعيداً عن أصوات القذائف وآثارها؟ "

تظهر على وجهك شبح ابتسامة لتخيلك اهتزاز الجدران كأنها تؤيد ما تقول، وسرعان ما تفكر أن اهتزاز الجدران ناتج عن محاولة دخول الموت إليك.. فتعيد الجدران إلى جمودها العادي.

تسترجع نهارك لعلك أخطأت بكلمة أو إشارة، ينزاح من على ظهرك حمل ثقيل لأن خوفك جعلك تستمتع بالصمت وتتأمل بهدوء كل ما قالوه - في مقر عملك، وفي الشارع - وما حاولوا زرعه في عقلك، ويظهر تساؤل في ذهنك عن كيفية حصولهم على تلك المعلومات، ومن أين جاءتهم أخبار المعارك، وبشائر النصر والهزيمة، وفي لحظة حسد تنتقد نفسك لأنك لم تحاول البحث عن المزيد من الأخبار التي تطمئنك:

" ولكن بحذر. "

تردد العبارة حتى تتأكد بأنك قد استوعبتها، ولن تخرج عن حدودها أثناء بحثك عن أية معلومات قد ترشدك إلى أين يجب أن تضع قدميك.

تتذكر أنك كنت عرضة لكل من يريد الإعلان عن نفسه، أو يريد السخرية منك، أو حتى يمينتك من الخوف.. فكل الناس صاروا صادقين.. الأعداء والأصدقاء.. فالمدافعين والمهاجمين الذين يحيون مع الموت في كل خطوة لاشك بأنهم صادقين، فمن لا يعرف الخوف لن يكذب.. ويمر بمخيلتك بأن أحداً منهم يكذب:

"ولماذا يكذبون؟ "

تستنكر بقوة تفكيرك الذي قaddock لمثل هذه التساؤلات المستحيلة.. وتحلق عالياً مع جو من الثقة، مما سمعت تشعر بالرضى لبعض الوقت حتى تنيأس من كل شيء.

تطوف بمنزلك للمرة العشرين وأنت لا تشعر بأنك قد رأيت تلك الجدران من قبل، تلقي على ظلك الرابض في أعماقها التحية قبل أن تندھش من وجوده على الحائط الآخر.. تستنقل الوقوف، وتستنقل كذلك الجلوس، ومع سكون أصوات المدافع لبضع لحظات تعود الكوابيس لتحفر لها ذكريات في مخيلتك، ذكريات لا تمحى أبداً.

تتوه بين عالمين، عالم اليقظة المزعج وعالم الأحلام المرعب، تهرب عند النقطة الأخيرة من الاحتمال إلى العالم الآخر.. الغد فقط هو الشيء الوحيد الذي يجعلك تحاول العيش لأجله لبضع ثوان أخرى حتى تأتي تلك القذيفة التي تنهي كل شيء.. لكن تلك الثواني تمر دون ما جديد، وتعود إلى داخل الدوامة، الخيالات المرعبة.. الحقول الخضراء.. أناشيد الدم، تختلط فيما بينها لتشكل كوكتيل لا تستطيع أن تجد في رأسك المشوش تسمية له، وتكتفي بتسميته - كالأخرين - بكوكتيل البقاء.

تربط الليل بحبل، وتحاول سحبه للغروب، وعندما تنجح في مهمتك - المستحيلة - تستيقظ لترى أن محاولاتك أوجدت كابوساً جديداً، تكتشف أن غرف البيت ازدادت طولاً و عرضاً وتحولت إلى ميدان كبير.. وبوسعك شم رائحة البارود المحترق، وقبل سؤالك من أين أتت الرائحة تعبر فوقك مجنزرة فخمة، تبتسم عندما ترى نصفك الأعلى ملتصقاً بأسفل المجنزرة بينما قدميك تحاولان اللحاق بها، وبمجرد توقف قدميك من التعب تتوقف المجنزرة لتعطي قدميك الوقت الكافي للراحة.. تتحرك قدميك، فتتحرك المجنزرة، غير أن قدميك بعد عدة ساعات تجرى في الاتجاه المعاكس و المجنزرة - وقد أصبح لديها رفاق - تطارد قدميك.. كل الأفق تحول إلى مجنزرات هدفها الوحيد أنت، وأثناء تعثر قدميك وسقوطهما على الأرض تجد مدفعاً مضاداً للدبابات، وحتماً ستموت - وقد مت - من الضحك عندما تكتشف أن قدميك ليس لديهما القدرة على إطلاق النار، وقبل أن تصل إليك المجنزرات لتوحدك مع التراب يعود الظلام للغرفة، ويعود كذلك حجمها الطبيعي، فنتحسس أجزاء جسمك لعل إحداها فضل البقاء مع شيء أصلب كثيراً منك.

الساعة السابعة وخمسون دقيقة مساءً.. تنهض إلى المطبخ لعلك تشعر برغبة في الأكل عندما ترى ما تحتويه ثلاجتك، لكن الظلال السوداء داخل الثلاجة تعود بك إلى كابوس تحاول نسيانه فتغلقها لتنتظر المجهول:

"لم ينته الأمر بعد ولكنه سيحسم الليلة."

هكذا تظل تردد بانتظار صرخات النهاية، وأثناء الانتظار تتسلى باسترجاع حكايات البطولة التي كان يرويها زملائك في العمل، كانت أصواتهم تأتي بوضوح رغم جلوسك بعيداً عنهم.. لم تهتم بهم أو بحكاياتهم في البداية، غير أنك سرعان ما

وضعت كرسيك بجوارهم محاولاً الاستزادة ليس رغبة بالحكايات ولكن بحثاً عن شيء يبعد من رأسك شبح الموت.

حكايات كالأساطير أو قل أساطير كالحكايات عما يجري هناك في ساحة المواجهة، براكين من الدماء تفور في تلك الساحة، وأنت تحاول أن تجد بضع قطرات من الدم في عروقك دون جدوى.. هاهو القصير يلقي بما حصل عليه من أحد أقربائه:

- ألف دبابة دمرت خلال الليلة الماضية.

اكتفيت بالصمت عندما أطلق الآخرون صيحة تمزج بين الاستنكار والدهشة، فعاد صوته يتردد بأنها الحقيقة.. ومضى يثير خيالك في كيفية وصول الحطام إلى هذا الرقم، وترى شخصاً يشبهك يعد الحطام حتى وصل الرقم إلى الألف، ترغب بهز رأسك مؤيداً لكلامه، غير أن كلمات أكثر رزانة قاطعت القصير، وهي تؤكد استحالة اجتماع أكثر من ثلاثمائة دبابة في مكان واحد:

- حتى إذا وصلت إمدادات فإن الأمر يستغرق أياماً ليصل العدد إلى الألف.

التفت إلى صاحب الصوت وأنت أكثر يقيناً منه بأنه على حق، وثار جدل بينهما وأنت تلتفت إلى اتجاه صوت كل منهما مؤيداً لكل ما يقولانه.. ولم يخرجكم من حالة الجدل والمناقشة إلا فتح الباب وإغلاقه:

- إنه رفيق المدير.

هكذا تطوع جارك الذي يجلس على يسارك بإخبارك هذه المعلومة التي تابعتها:

- إن لديه معلومات مؤكدة عن ما يجري، فلدیه اتصالات واسعة.

تهيئ نفسك لمعرفة ما يدور هناك، وتراقب القادم حتى يجلس وهو يقول:

- الضحايا في كل مكان.

تتلفت حولك باحثاً عن جنتك.. تبتعد عنهم قليلاً - زملائك بالمكتب - وتمسك الملف الذي تحاول معرفة ما فيه منذ بداية الدوام، وبينما يداك مشغولتان بالبحث عن طريقة لفتح الملف تنهمك أذنين - كنت في الماضي تسيطر عليهما جيداً - بالإنصات لما يدور على بعد بضع كراسٍ.. تخفض رأسك بعد كل كلمة تحدثت عن انسحاب بعض القوات، تنسى المجهول وأنت تحت الراوي على إلقاء المزيد من كلمات النصر التي تقتل الخوف، ويتحول النصر إلى ذكريات في مخيلتك، وتنتهي الحرب لترى الفرسان والطائرات يمرون في استعراض مهيب.. ولا تملك سوى أن تكون

قائدهم، تلمح عبر مكبرات الصور كيفية صناعة النصر، وترى نفسك تقتحم التحصينات وتنزل بأعدائك الضربات تلو الضربات، تبحث عن النصر فوق أشلاء القتلى، وتمر بمجنزراتك فوق ألعاب الأطفال المتناثرة بحثاً عن الطرائد الثمينة.. ومع تصريح الساعي الذي دخل المكتب ليعلن عن إشاعة سقوط قذيفة بالقرب من مكتب البريد انكمش جميع من في المكتب، وعاد الخوف.

تنهض محاولاً إيجاد شيء عمله، غير أنك سرعان ما تعود لجلستك السابقة بجوار الباب.. تواصل البحث في ذاكرتك عن أشياء أخرى.

في طريقك إلى المنزل هذا المساء سمعت أشياء كثيرة دون أن تجرؤ على تحريك رأسك لتتظر - بشكل واضح - في وجه المتكلم - فما تعنيك ملامحه - المهم أنك سمعت إشاعة ومزیداً من الخوف.. تتمنى بأنك لم تسمع شيئاً وأن أحلامك هي التي صورت الواقع معكوساً، وأن كل شيء على أحسن حال.. تقسم - مجدداً - أنك ستتغلب على خوفك، وستتخلى عن سمعك، ولن تعير الإشاعات أية أهمية، لكن بعد قليل عدت تتساءل بنظراتك عن آخر الأخبار.. أحزنك عدم حفاظك على قسمك، وتبرر ذلك بأنها لحظة ضعف أطلقت فيها ذلك القسم، وأنك في الطريق إلى التخلص منها.

تأخذ جهاز الراديو الملقى على الأرض، تعيد له بطاريته المتناثرة على الأرض، تقول لنفسك بأنه ليس سوى آلة لنقل الكلام، وأنه لا يخترع الكلام من تلقاء نفسه، بل يردد ما يسمعه، وبعد هذا التفسير تقلب موجات الراديو، وتتداخل أصوات الإذاعات من جديد في أذنيك، وأنت تعرف أن ما تسمعه أكاذيب، لا يجبرك على السعي وراءها إلا الهروب من المجهول.. وبكلمات أكثر دقة الزحف بعيداً عن الموت.

الجندي يموت مرة واحدة، وأنت تموت كل ساعة عشرات المرات، وذلك الخيط الرفيع الذي يربط بين الرغبة بالبقاء والحياة سرعان ما يجذبك بعيداً عن الحقيقة التي بدأت تتبدى أمامك.

تفضل بعد ثلاث دقائق القراءة على الاستماع.. فتدور عيناك عبر ضوء الشمعة الضئيل بين عناوين الكتب لعلك تجد عنواناً ينسبك دوي الصمت، لكن هاهي المرة الرابعة التي تترك كتاباً لتختار كتاباً آخر، بضع كلمات هي محصلتك من قراءتك، حتى هذه الكلمات تختفي رويداً رويداً.. وتتحسر لأنك لا تملك كتاباً يتحدث عن الحرب، وتدور في مفكرتك أنه يجب شراء بعض الكتب الحربية.

تنظر في ساعتك، لم تمر سوى عشرين دقيقة بعد الثامنة مساءً، والليل مازال يزحف ببطء.

تكتشف في نفسك موهبة الكتابة فتمسك قلماً، ويتكون من الحبر المتناثر منه على إحدى الصفحات شكل دبابة فتحاول وضع زهرة فوقها.. لكن فكرة الزهرة تتحول إلى قذيفة تحول الدبابة إلى أشلاء.

تمل من جديد فتضع الأوراق جانبا، وتطفئ الأنوار الخافتة التي يسمح بها وأضواء القذائف لا تفارق خيالك، تحاول الاستمتاع بالظلام.. تتذكر عدة ليال أطفئت فيها الضوء، وظللت في العتمة.. تحاول الاستغراق في ذكريات الأيام الماضية، لحظات وتقودك ذاكرتك إلى وضعك الآن. ومن جديد ترحف أناملك نحو أزرار الراديو وتقلب موجاته الواحدة تلو الأخرى، أنباء متضاربة، تلتصق أذنك فوق سماعة الراديو لعل الهواء هو الذي يغير الكلام وتجد - بدون سبب - لسانك يتحرك ويؤكد بأن الضرب في الجهتين.. تنتقل بين المحطات وتتوقف عندما تسمع خبراً يريحك، الأصوات المتكررة تدفعك لترك الراديو، ونزع البطاريات منه و إلقائها بعيدا.

تنتسل إلى النافذة علك تجد نقطة ضوء تعيد لك الشعور بالحياة، ظلال المنازل الساكنة يوحى لك بالخراب، فتعيد الستارة إلى مكانها، وتترك لقدميك حرية اختيار المكان الذي ستذهب إليه داخل حدود غرفتك:

**" ماذا يفعلون هناك ؟ هل كل ما نسمعه عنهم يدخل في خانة التصديق والحقيقة ؟
وأين النهاية ؟ "**

تساؤلات عديدة تضاف كل دقيقة إلى ذهنك.. تساؤلات لن تتمكن من العثور على إجابات لها إلا بالخروج إلى الإجابات المنطلقة من أفواه الناس في الشارع.. لكن مغادرة المنزل الآن محفوفة بالمخاطر، وتفضل أن تتراكم لديك الأسئلة على البحث عن إجابة لإحداها الآن، ليس خوفاً ولكن لتثبت لنفسك أنك تستطيع حل أي معضلة، حتى وإن كانت التعايش بين فريقين ينامان بهدوء بعد معركة شرسة.

تنظر للمرة المائة لساعتك الفسفورية وأنت تحاول الهروب من تلك الأفكار:

" مازالت الثامنة وأربع وخمسين دقيقة مساءً.. مازال الوقت مبكراً للنوم."

أوهمت نفسك - بعد دقائق - أن الجو بارداً لتختفي تحت الفراش، راجياً أن يزورك النوم باكراً هذه الليلة خصوصاً بعد سهر الليلة الماضية.

إغفاءة بسيطة تنتهي على دوي هائل - أو على الأقل تسمعه هائلاً - وأسرع من أي فترة أخرى كان صوت جهاز الراديو يدوي بأذنيك بأخر التفاصيل.

تتأكد أن تلك الغفوة القصيرة حرمتك من النوم.

" كان فحاً إذاً "

توجه حديثك إلى عينيك المتوقدتين، وبدون شعور تشعل الضوء لتطرد تلك الأشباح التي تطرق دون ما كلل على طبول أذنيك.. وسرعان ما تطفئه على إثر صيحة التنبيه التي أصدرها عقلك، فيجب أن يكون الظلام دامسا حتى يبقى رأسك أعلى رقبتك.. تفتعل مشاجرة مع نفسك لعل الهموم التي تعشش برأسك تطير باحثة عن رأس أكثر هدوءاً لتسكن فيه، تنتج خطتك لدقائق قليلة، حتى تلمح تلك الأوهام تعود مطالبة بحقها في الموت معك، تتراجع إلى حافة السرير عندما تتذكر الموت، تقول لنفسك أن تراجعك ليس خوفاً ولكنه رهبة.. فأنت لم تستعد بعد لتقف بسكون أمام الموت، تشعر بأنك تستطيع عمل أشياء كثيرة قبل وضع يديك أمام الموت.. تخشى أن تموت الآن قبل عمل شيء يبقيك على قيد الحياة على الأقل في عيون الناس، تشعر بغرابة عندما تفكر بالاجتماع مع الموت في مكان واحد، وأنت لم تألف أن تعيش الموت.

صوت خطوات سريعة تصل إلى أذنيك، تشعر أنك تسمع هذا الصوت للمرة الأولى، تتوقف جميع خلاياك بانتظار النتيجة، تقترب الخطوات، فترفع دقات قلبك معلنة عن اقتراب خطر ما، بضع خطوات أخرى وتصل لك، تفكر بالقفز من النافذة، لكن الخوف يجعل المحاولة مستحيلة، تقلب عينيك في الغرفة لتجهز نفسك لعمل أي شيء، لكن الخطوات المنهكة تجتاز بابك بنفس السرعة، تسمع صوت باب الشقة في الدور الأعلى يفتح ويغلق، ليترك مجالاً لعودة الهدوء إليك، تتقدم إلى النافذة - ربما للمرة الألف - وبحركة سريعة اكتسبتها من الساعات الماضية تزيح الستارة، ثم تعيدها، وخلال هذه اللحظة السريعة تكون قد عرفت كل شيء يدور في الشارع الهادئ.

تحلق في فضاء الحجرة الكئيبة، تخترق عيناك السقف الأسمنتي لتطوف بين النجوم حيث يتوحد السكون والجمال.. ومع الأحلام الهادئة يأتيك اليقين بأن الحرب ستنتهي بعد يوم أو يومين، وترتب أعمالك التي ستبدأ بها أولاً بعد سكون العاصفة، تعد نفسك بأشياء كثيرة لتعوض القلق الذي عشته، ورويداً رويداً يتسلل النعاس إلى جفنيك المنهكين، وتفتحهما لتجد نفسك داخل صحراء واسعة.. كابوس آخر يجبرك على التخلي عن أحلام الحياة، وتحاول الخروج منه دون جدوى، ترفض الاقتناع بأنك في صحراء، فتشدد حرارة الشمس وتضطر إلى البحث عن ظل.. تقترب من إحدى التلال لتتسلقها لتتمكن من رؤية ما يدور وراءها، غير أن هدير تلك التلة يوحي لعقلك باسم آخر لها، وعوضاً عن استمرارك في السير إليها تعود إلى الوراها بأقصى ما تستطيع، تعود بسرعة عندما تتشكل صورتها من جديد لتناسب هديرها

الغاضب ويظهر بشكل واضح هيكلها المعدني المصفح.. وسرعان ما تلحق بك وقبل أن تنام سلاسلها الحديدية فوقك تتمكن من فتح حفرة.. لا يهتم إلى أين تذهب بك المهم أن تنجو من بين أنياب المجنزرة، تسقط في هاوية، وتشعر بجسم رطب تحتك خفف من صدمة سقوطك، ومع اعتياد عيناك على المكان نهضت، تتلفت حولك لتعرف أين وقعت، وتلتصق بالجدار عندما يخيل إليك أنك رأيت شبحاً.. غير أن نظراتك الفضولية تبقى عينيك مفتوحتين، ويحلل عقلك صورة الجثة التي تراها أمامك، ويطابقها مع ملايين الأسماء، تحس أنه عثر على الاسم الذي يمثل الصورة.. وفي نفس الوقت تستنكر ما توصل إليه عقلك، فمن غير المعقول أن تكون تلك الجثة جثتك.. تسارع بنفي الفكرة، وإعطاء الأوامر لقدميك بالتحرك بعيداً عن تلك الجثة، أمتار فقط ومن ثم تتعثر بجثة أخرى، تنهض وأنت تبحث عن شيء من الشجاعة يوقفك لتصرخ في وجه الجثة بأنك لا تحب الكوابيس، وأن كل شيء أمامك مجرد وهم، وأن كل هذا لا يؤثر فيك.. غير أن تلك الهياكل العظمية في منتصف الممر تجعلك تصرخ بأعلى صوتك، ويغمى عليك لتستيقظ داخل غرفتك.

الحادية عشرة مساءً.. لا صوت غريب منذ نصف ساعة.. فقط تسمع صوت تنفسك الذي تكتمه بين الحين والآخر لتتأكد من استمرار الصمت.. تذهب للنافذة من جديد:

" لا شيء.. "

تتمتم بخفوت، وتحدث نفسك ببعض ذكريات الطفولة، تلك الذكريات التي تحكي عن معركة بينك.. ليس بينك.. تغمض عينيك وتطل الصورة القديمة للمعركة الطفولية.. نعم لم تكن المعركة بينك وبين أحد ما، بل كانت بين أصحابك وبين أطفال من الحارة الأخرى.. نفس الموقف يحدث لك الآن، تجلس صامتاً بانتظار انتهاء المعركة.. معركة لا تعرف عنها الكثير، ولن تستفيد من نتائجها.. معركة صادف إنك في الجزء الذي وقعت فيه.. نفس ما حدث لك في طفولتك.. كنت واقفاً بجوار الجدار والمعركة الطفولية مشتتة في منتصف الطريق.. حماسة الأطفال كانت عالية.. وأنت كنت تستند للجدار بانتظار فرصة تهرب فيها لمنزلك.. تتذكر الحجر الذي سقط فوق رأسك، والدم الذي سال.. تتحسس رأسك:

" لم يعد له وجود الآن.. "

لكن إذا سقط الحجر هذه المرة فستكون النهاية.

الساعة الثانية عشر والنصف.. بالأمس كنت عند هذا التوقيت نائماً.. وبعدها بنصف ساعة بدأ القصف.. وتفرح نفسك بأن المعركة ستنتهي كما بدأت.. تشعر بفرحة مفاجئة وتعلو دقات قلبك.

مع خيوط الفجر الأولى تنهد بصوت مسموع، تنهض كأنك على موعد هام.. مع ارتدائك لملابسك تتخلص من فرحتك الزائدة بانتهاء الليل.. تأخذ الكرسي من وراء الباب وتضعه بجوار النافذة لتجلس عليه.

يعيد لك السكون الممزوج بالقطرات الباردة الهدوء الذي افتقدته.. تتأمل نهوض الشمس من سريرها المائي، تراقب ألوانها الدافئة وهي تتسلل شيئاً فشيئاً إلى داخل قلبك المرتجف، قلبك الذي ما إن هدأ حتى أشعلته أصوات القذائف، القذائف التي أحالت النهار إلى ليل تبحث فيه كالقوارض عن أسباب النجاة، تقف كاليرابيع الصغيرة على قدميك لعلك تسمع خبراً أو جواباً يخطو بك نحو الأمان، وأثناء ذلك تحاول التخلص من بقع الشمس التي تطوف بجسدك وتغمرك بأشعتها دون أن تبالي بألعاب الأطفال النارية التي تحاول إسقاطها، توقف أفكارك عن الاسترسال عندما تصل لكلمة الفناء، وتناشد الشمس بوقف كل شيء، وأن تهبك شيئاً من لهيبها يحميك من الخوف.

أفكار خيالية أخرى لا تتوان عن العبث بك.. تعود لتخفض رأسك بصمت قانعاً بما أنت فيه، فمازلت على قيد الحياة، وبإمكانك رؤية رايات النصر والأمان غداً.

تفكر بكيفية إخفاء انهيارك في الليلة الماضية عن الآخرين، أعجبتك إحدى الأفكار عن نومك العميق بعد قراءتك لكتاب، وبعد ترتيب أحداث معينة في رأسك، كان ليك المزيف جاهزاً لتعرضه على من سيسألك عن الليلة الماضية، ترفع يديك إلى مستوى عينيك لتتحدى أشعة الشمس، ولكنك سرعان ما تخفضهما معلناً عن انتصار الشمس.. وتنتظر المعركة الثانية بصبر لا يكاد يريحك ولو لثانية واحدة.

عقارب ساعتك تشير إلى السابعة والنصف صباحاً، فتلقي نظرة عابرة على المرأة لتثبت لنفسك بأنك مازلت موجوداً، تتجه إلى الباب بخطوات صارت أكثر ثقة من الليلة الماضية، ومن بعيد تسمع أصوات القذائف تتصاعد، فتتجه إليها لعل تلك الأصوات تكون هي الطلقات الأخيرة

*سمير عبدالفتاح: كاتب قصص قصيرة، روائي، وكاتب مسرحي يماني. من أعماله المجموعة القصصية "رنين المطر" 2002 ورواية "السيد ميم" (2007) و"ابن النسر" (2008).